روبير مونتان والقضية الفلسطينية

مقاربة سوسيولوجية للاستيطان اليهودي

في أرض فلسطين (1930 - 1946)*

هنري لورانس ترجمة: د. عز الدين الخطابي

تقديم

تندرج سوسيولوجيا روبير مونتان (1890-1953)، ضمن ما يمكن تسميته بالخطاب الملتبس والمفارق في حقل العلوم الإنسانية (إثنوغرافيا، سوسيولوجيا، سيكولوجيا، تاريخ . . . الخ). فهو من جهة، يدعي العلمية والموضوعية في معالجة القضايا التي تهم الآخر (المختلف أو الخاضع للهيمنة الاستعمارية)؛ ولكنه من جهة أخرى، لا يخفي تحيزه لسياسة الوطن الأم.

ويعتبر منتج هذا الخطاب نفسه مستشاراً لأصحاب القرار السياسي، لأنه يمتلك "سلطة العلم".[1]

ويكتسي هذا النص المقترح، أهمية كبيرة، لأنه عبارة عن رصد ميداني للاستيطان اليهودي في أرض فلسطين ما بين 1930 و1946، ومعلوم أن مونتان كان يشغل وظيفة مدير المعهد الفرنسي في دمشق في الفترة ما بين 1930 و1938؛ وهو أيضاً رصد لانعكاسات الصراع اليهودي الفلسطيني على سياسات القوى العظمى آنذاك: فرنسا، بريطانيا العظمى، ألمانيا في البداية؛ ثم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي لاحقاً؛ فضلاً عن تأثير هذا الصراع على الأوضاع في المشرق والمغرب العربيين وفي البلدان الإسلامية بشكل عام.

وهنا سيبرز الموقف الملتبس لمونتان من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتأرجحه بين الإدانة وإيجاد مبررات لهذه الهجرة. والمثير في الأمر أن الموقف المعادي للصهيونية لدى مونتان، يتموقع داخل منظور جيو-سياسي، يعتبر الصهيونية خطراً على المصالح الاستعمارية لفرنسا، وبخاصة في البلدان التي تتواجد فيها ساكنة يهودية كثيرة العدد، كما هو الشأن في شمال إفريقيا.

وكيفما كان الحال، فإن هذا النص الذي قام الباحث الفرنسي هنري لورانس (Henri Laurens) بصياغته انطلاقاً من مجموع نصوص مونتان حول القضية الفلسطينية، هو عبارة عن وثيقة مثيرة حول فلسطين في إحدى الفترات الحرجة من تاريخها. ويتعين علينا التأمل فيها لقراءة الحاضر (العربي وليس فقط الفلسطيني)، واستشراف المستقبل في ظل الصراع الحالي بين القوى والمصالح (الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقائدية) في عالمنا.

المترجم

1. ماسينيون ومونتان

شكلت الرغبة في تتبع التطورات السياسية ببلدان المشرق العربي، تقليداً قديماً. ذلك أن لوشاتولييه (Chatelier Le)، كان قد اتبع هذا التقليد في مجلة **العالم الإسلامي** قبل سنة 1914، كما أن الحزب الاستعماري الفرنسي (Parti colonial français) كان يتوفر على مجلة ذات أهمية في هذا المجال، وهي مجلة **آسيا الفرنسية** (L'Asie française). من جانب آخر، فإن مجلة **مراسلات من الشرق** (Correspondance d'orient)، الممولة بشكل سري تقريباً من طرف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، كانت تنشر بشكل منتظم، تحليلات ووثائق حول المنطقة. ومع ذلك، فإن لوي ماسينيون (Louis Massignon) أستاذ كرسي معهد فرنسا (كوليج دوفرانس)، كان يأسف لغياب رؤية سوسيولوجية واضحة، ضمن مقاربات الإسلام العربي. ولهذا السبب، عمل بحماس على إعادة تحديد مهام "معهد الدراسات العربية في دمشق"، في اتجاه إقرار مقاربة علمية حقيقية للمجتمعات العربية، ودعم تعيين روبير مونتان مديراً لهذه المؤسسة.

على مستوى آخر، أكد ماسينيون على أن هذه المقاربة هي عبارة عن "سوسيوغرافيا" (سوسيولوجيا وصفية)، وحدد مجال اهتمامها في أربع قضايا نموذجية، يتم خلالها تقديم حلول سياسية ممكنة. وهذه القضايا هي:

- التصنيع وتطور الصناعة التقليدية.
- الإصلاحات البيداغوجية وبرامج التعليم العمومي.
- وضعية المرأة.

• تحديث وسائل الدفاع عن الإسلام.

ويتعين على هذه "السوسيوغرافيا" أن تعبر عن تعاطف وجداني مشروط مع عالم مختلف بشكل كبير عن عالمنا، على الرغم من التقدم الذي حققه الاحتلال والاستعمار الاقتصادي. وقد كان ماسينيون بقوله هذا، يستحضر مشاكل إفريقيا الشمالية التي جعلت من المسألة الإسلامية بالنسبة لفرنسا، "مسألة تنظيم داخلي ذي توجه اجتماعي مباشر"؛ في حين اعتبرتها إنجلترا "مسألة خارجية واقتصادية، كما هو الشأن في الهند".

لذلك، يجب تتبع الإسلام العربي "كي يكون موقفنا السياسي من الإسلام أكثر إيجابية، ولكي نبعد كل النصائح المشكوك فيها، التي يسديها الإداريون والمستوطنون الخائفون على مصالحهم، حتى نتمكن من الحفاظ على السلم بإفريقيا الشمالية". [2]

وكان ماسينيون واعياً بضرورة التوفر على رؤية شمولية تتجاوز مساءلة ما هو خاص؛ نموذجه في ذلك، كل من مبحث الشؤون الدولية لتوينبي (Survey of international affairs de Toynbee) في مؤسسة شاتهام (Chatham)، ومبحث الشرق الحديث الإيطالي (L'oriente moderno). وسيدعو في هذا الإطار إلى إنجاز مبحث فرنسي يختلف مضمونه عن النموذج البريطاني "الذي لا يتلاءم مع حاجيات الجمهور الفرنسي، لأن الغرض منه قبل كل شيء، هو تنوير رؤساء تحرير مجلاتنا وجرائدنا. والحال، أن السياسة الفرنسية ليست مماثلة للسياسة البريطانية، وبخاصة فيما يتعلق بالمسائل الاجتماعية التي لم يقم توينبي إلى حد الآن بمقاربتها، على ما أعتقد". وقد أسندت مهمة رئاسة التحرير للمدير الجديد لمعهد دمشق وهو روبير مونتان، الذي سينشر سنة 1933 في مجلة الدراسات الإسلامية التي كان يشرف عليها لوي ماسينيون، دراسة بتوقيع مستعار هو لوي جوفلي (Louis Jouvelet)، اختار لها عنوان "التطور الاجتماعي والسياسي للبلدان العربية ما بين سنوات 1930 و1933". [3]

انطلاقاً من هذه التجربة، سيعمل مونتان على إنجاز استمارة أشمل من سوسيوغرافيا ماسينيون، وهي عبارة عن "تصميم منهجي للأبحاث حول بلدان المشرق الخاضعة لفرنسا، وحول البلدان المجاورة لها".

وتنقسم الاستمارة إلى ثلاثة أجزاء كبرى، يتضمن كل واحد منها مجموعة من العناصر. [4] وهي كالتالي:

1) الحياة الاجتماعية، وتشمل:
أ) المجتمعات المتطورة (العالم الحضري).
ب) المجتمعات القديمة (البدو والقرويون).
ج) النشاط السياسي.
د) النشاط الديني.
هـ) أحداث الساعة.
2) الحياة الثقافية، وتتضمن:
أ) التعليم العمومي.
ب) الصحافة الدورية.
ج) الأدب.
3) الحياة الاقتصادية، وتشمل:
أ) الإنتاج.
ب) التوزيع.
ج) الديموغرافيا. (وقد كلف جاك فوليرس (Jaques Weulerse) بإنجاز هذا العنصر).

ويبدو أن هذه الاستمارة لم ترقْ لماسينيون الذي انتقدها بشدة، معتبراً أن الدارسين للإسلام ليسوا مطالبين باعتماد جميع الأسئلة الموجودة ضمن استمارة نمطية، تستخدمها كل المجموعات الثقافية في العالم: "فأنا لست من أنصار الاختزال والانصهار داخل القاسم المشترك، عبر الخضوع لمنهجية سوسيولوجية قبلية، والتأثر بردود الأفعال الأولية للإنسان المشتغل بالميدان".

إن هذا التعارض الحديث النشأة بين الرجلين سيتجلى بشكل مثير، في المصطلحات المستعملة لتسمية الواقع الجديد الملاحظ من طرفهما. ففي سنة 1936، كان ماسينيون يلح على عدم وضع عبارة الإسلام العربي بين مزدوجتين، في حين كان مونتان يتحدث عن "البلدان العربية" منذ سنة 1933، بوضعها بين هاتين المزدوجتين. وسيستعمل عبارة "العالم العربي"، كإعلان عن مفهومه الأساسي المرتبط بالإشكالية التي سيعالجها في السنوات اللاحقة، والتي تلخصها قولته التالية: "على الرغم من أن العلاقات بين طرفي العالم العربي قد تمت مؤخراً، فإن المغرب العربي ما زال متأخرا بالمقارنة مع الدول العربية الأخرى ومع مصر، إلى درجة أن أحداث الشرق الأوسط بإمكانها -إلى حد ما- وإذا ما سارت الأمور بالوتيرة نفسها، أن تشكل بالنسبة للغرب الإسلامي مشاهد نموذجية لمستقبله".

وسواء لدى ماسينيون أم لدى مونتان، فإن الأمر يتعلق بدراسة المشرق العربي، مع استحضار دائم لقضية إفريقيا الشمالية.

لذلك، فإن الغرض من ذهاب مونتان إلى المشرق العربي هو تتبع تطوره وتأثير هذا التطور على المغرب العربي. وقد حتمت عليه ضرورة البحث زيارة فلسطين في كل سنة مرة – ما بين سنوات 1932 و1936 على الخصوص- والقيام في الفترة نفسها، بزيارات مماثلة للعديد من البلدان العربية.

2) فلسطين عند بداية الثلاثينيات من القرن الماضي

مباشرة بعد انخراطه في عملية البحث سنة 1933، أكد مونتان أننا نجد أنفسنا في هذه البقعة من العالم "أمام مأساة تاريخية لا يفهمها سوى أولئك الذين يريدون التعمق في التشابك اللامتناهي للمصالح، وفي اللعب الماهر للنفوذ، أولئك الذين يرفضون التحيز مسبقاً لقوة من القوى المتواجدة على الساحة وهي: الحضارة الغربية، والنهضة العربية، والأقليات العرقية والدينية واللسانية والصهيونية". [5]

ويبرز التصميم المنجز من طرف مونتان الأهمية التي كان يوليها للقضية

الفلسطينية، وقد حدد عناصره كما يلي:

- الملامح العامة للحياة السياسية بالبلدان العربية التي تواجه تدخل القوى الأجنبية في شؤونها.
- القومية العربية.
- الأقليات.
- العرب وتطور الصهيونية.
- بعض ملامح التطور الاجتماعي.

إن مقاربة مونتان لهذه المسائل ستعتمد على منهجية مقارنة. فقد ألح منذ البداية على أن مسألة العدد (عدد السكان) ثانوية، مقارنة بالإمكانيات الاقتصادية: "وبإمكاننا التأكيد على أن عدم التناسب هنا، يشبه عدم التناسب القائم بين المستوطن الفرنسي الذي حل بالجزائر أواسط القرن التاسع عشر، والسكان الأصليين من عرب وأمازيغ". [6] وبذلك ستكون تل أبيب هي "دار البيضاء الصهاينة". لقد قدم المهاجر اليهودي إلى فلسطين وهو مسلح بتقنية حديثة عالية، وبتنظيم ممنهج للعمل، وبقوة مالية لا تحد تقريباً، وبانضباط جماعي. بالمقابل، فإن عشرين سنة من المحن، أضعفت الإنسان العربي، مسيحياً كان أم مسلماً، وأدت به إلى الإفلاس، فقد كان مثقلاً بالديون، محدود النشاط، ولا يتوفر على تكوين تقني، كما كان السكان العرب يتوزعون على مجموعات متصارعة فيما بينها. "وسينتج من جراء ذلك، انحسار اقتصادي سينعكس على كل الطبقات الاجتماعية للساكنة القديمة بفلسطين، وستزداد هذه الوضعية تفاقماً بفعل فقدان هذه الساكنة أراضيها الخصبة في العديد من مناطق البلد". ومما لا شك فيه، أن هدف الصهاينة كان هو تأسيس دولة. من هنا، اكتست الزيارات الأولى التي قام بها مونتان لفلسطين أهمية كبيرة. فقد كان ما يعرف بالموطن القومي اليهودي (foyer national juif) قد خرج من أزمة اقتصادية خانقة؛ وبفعل قيام النازية في ألمانيا، اعتبر أن بإمكانه التوفر على الموارد البشرية والمالية الضرورية لتحقيق توسع سريع.

وسيدرك مونتان بعمق، حجم القلق والاستياء العربيين، وهو ما دفعه للقيام بتحليل مفصل للحياة السياسية المحلية. وبالفعل، فقد شعر بخطر قيام ثورة عربية مؤطرة من طرف القوى الدينية الإسلامية، وليس من طرف قوى القومية العربية.

وسيلاحظ في هذا الصدد، أن المواجهة بين الطرفين الفلسطيني واليهودي، لم تكن متكافئة، وإن كان البعد الديني حاضراً لديهما. لذلك، سيشهد بما قاله عزوري (Azouri) سنة 1905: "إن عظمة النموذج المتبع لا تساويها سوى المخاطر التي سيجلبها هذا النموذج لشبه الجزيرة العربية وللعالم برمته (...) ويبدو أن عرب فلسطين مهددون بالتراجع المستمر، اللهم إذا ما تمكنوا من منح العالم الإسلامي برمته، شرارة ثورة لن نجزم بنجاحها. ومما لا شك فيه، أن الانفجارات العنيفة المقبلة، ستؤثر سلباً على تقدم الصهيونية في المستقبل". [7]

يظهر إذن، أنه لن يكون هناك حل تصالحي، بل إن دينامية الصهيونية ذاتها، لا يمكن أن تتلاءم مع مصالح الإمبراطورية البريطانية.

3) فلسطين في سنة 1936

سيخصص مونتان أبحاثاً عديدة حول القضية الفلسطينية سنة 1936. ويرجع هذا الاهتمام المتجدد إلى تكليفه ملف القضية من طرف مركز دراسات السياسة الخارجية الذي أسسه العميد شارليتي (Charlety). هكذا، سيعتمد في البداية على أعمال غير منشورة، أنجزت سنتي 1934 و1935، وتوجت بمقالة صغيرة تحت عنوان "العرب والاستيطان اليهودي في فلسطين". ويتعلق الأمر فيها، بتحيين لدراسة أنجزت سنة 1933، بيّن فيها التزايد الهائل لأعداد المهاجرين اليهود، بحيث لم يخفِ إعجابه بقدرتهم في هذا المجال. وسيقوم بدراسة حالة محددة، وهي الاستيطان القروي بمنطقة وادي الحوارث، موضحاً في تحليله أن العملية هي بمثابة استيطان قائم على الإبعاد (Colonisation de refoulement)، سواء في المجال الفلاحي (القروي) أم في المجال الاقتصادي. وقد عبر عن ذلك قائلاً "يبرز الاستيطان اليهودي حالياً، كاستيطان قائم على الإبعاد، فكل الأراضي التي تم شراؤها، ستخصص لتشغيل اليهود وحدهم. وعندما يشتري تاجر عربي البرتقال من بستان يهودي، فإنه لن يسمح له باستخدام عمال عرب لجني هذه الفاكهة؛ في حين يسمح لتاجر يهودي باستخدام عمال يهود لجني البرتقال من بستان عربي. من جهة أخرى، فإن هذا الإبعاد سيشكل وضعاً مأساوياً بالنسبة لعدد كبير من المزارعين العرب". [8]

ولأن اليهود لا يملكون القدرة على الاندماج بالساكنة العربية، فإن مسألة تعايش الشعبين تبدو صعبة الحل، فبالنسبة للعرب، ومن ضمنهم المسيحيون، يتم الشعور بالاستيطان اليهودي كعملية إبعاد، شبيهة بالإبعاد الذي حصل للمسلمين إثر استرجاع الأندلس من طرف الكاثوليك الإسبانيين. وبسبب غلاء ثمن الأراضي في فلسطين، شرع الاستيطان اليهودي في التوسع في المناطق المجاورة لنهر الأردن وسوريا ولبنان. ولولا الموقف المناهض لهذه العملية من طرف فرنسا وبريطانيا كقوتين استعماريتين، لحقق المستوطنون مرادهم. لكن هذا لم يكن كافياً. ذلك أن النجاح المتسارع للصهيونية، قد يؤدي إلى حركات شعبية لدى مسلمي شمال إفريقيا والعالم العربي. وهو ما سيحدث بكل تأكيد، إذا ما فتحت فرنسا أبواب سوريا أمام الاستيطان اليهودي؛ ما سيؤدي إلى بزوغ حركات مناهضة لليهود في شمال إفريقيا "قد تضر بالتوازن الذي تحقق بصعوبة بين الشعوب المختلفة لهذه المنطقة".

هناك إذن خطر قائم: "فالرهان يتجاوز الاستيطان اليهودي في سوريا، ليصبح رهان المصالح اليهودية في شمال إفريقيا وأيضاً رهان سياستنا الأوروبية بكاملها. ولا ننسى أننا نلعب فوق رقعة توجد فيها أيضاً، ألمانيا المناهضة ليهود".

وفي دراسة أخرى، صدرت في السنة نفسها والمجلة نفسها، [9] وهمت وجود البريطانيين في الشرق الأوسط، بين مونتان كيف أن فلسطين هي الجزء الوحيد في هذه المنطقة، إلى جانب عدن (اليمن)، التي أضطر فيها البريطانيون إلى إقامة حامية عسكرية؛ في حين تمكنوا في جهات أخرى من توظيف القوى الاجتماعية المحلية لخدمة مصالحهم. فـ"الوضعية السياسية للبلد هي وحدها التي تبرز هذا الاستثناء، حيث تعيش قوميتان

جنباً إلى جنب في حالة سخط متزايد. وتبين لنا التجربة هنا، أن المهارة والروح السياسية والصبر، غير كافية. فمن الضروري أن تتواجد قوة عسكرية متأهبة دوماً للتدخل من أجل تفادي تحول المعركة بين إسحاق وإسماعيل إلى حرب مفتوحة".

وقد سمحت هذه الأحداث بإثارة القضية الفلسطينية في النقاشات حول تطور البلدان المنتمية إلى الحضارة العربية، التي انعقدت في باريس ما بين 6 و9 تموز سنة 1936، تحت إشراف معهد الدراسات الإسلامية التابع لجامعة باريس ومركز دراسات السياسة الخارجية.

وفي هذه الفترة، عوض مونتان عبارة "البلدان العربية" بـ"العالم العربي"، ضمن الإشكالية المطروحة في النص الافتتاحي الذي قدمه تحت عنوان "الخصائص العامة للحركات الشرقية الكبرى".[10] وقد تزامن قلقه بشأن شمال إفريقيا مع بداية الثورة الفلسطينية، حيث عبر عن ذلك قائلاً: "إن الحركة الواسعة المناهضة لليهود في كل من فلسطين وشمال إفريقيا، تمت بنوع من التنسيق. ومما لا شك فيه أن مركزها الرئيسي يوجد في فلسطين كميدان مغلق يتواجه فيه الصهاينة وخصومهم من العرب المسيحيين والمسلمين. غير أن صحافة الشرق برمتها أثارت انتباه المسلمين إلى مصير إخوانهم في فلسطين. ولهذا، لم نندهش عندما علمنا في الأسابيع الأخيرة بالدعوة إلى المقاطعة الشاملة لليهود، وهي الدعوة الصادرة عن علماء الجزائر الذين تلقوا تعليماتهم من المفتي الأكبر في القدس. وفي الوقت نفسه، أدى تنظيم مؤتمر جزائري يدعو إلى حق الاقتراع بالنسبة لكل الأهالي، إلى زرع البلبلة في العقول التي نسيت التعليمات القادمة من فلسطين. ومع ذلك، فإن الحركة المناهضة لليهود انتشرت من مدينة إلى أخرى في كل شمال إفريقيا. ونادراً ما كنا نواجه حوادث معزولة في هذا الخصوص. هكذا، فقبل ثلاثة أشهر من مجازر قسطنطينة لسنة 1934، وقعت أحداث مشابهة لكن محدودة، في كل من الدار البيضاء والرباط. ومؤخراً، وقعت سلسلة من الأحداث في كل من وهران ومستغانم وسوسة. ومن الجانب اليهودي، يبدو أن حركة تضامنية بدأت في النشوء، إذ أن الدعاية الصهيونية بلغت الجزائر العاصمة، حيث توجد منظمة كشفية يهودية، تدافع عن فكرة الاستيطان في أرض إسرائيل. ولهذا أصبحت الشبيبة اليهودية في شمال إفريقيا، خاضعة لتأثير الصهيونية، وإن كانت العملية إلى حد الآن، محدودة جداً في الواقع".[11]

وقد هيأ مونتان مداخلة اختار لها عنوان "الوضع الحالي للصراع اليهودي العربي في فلسطين"، حيث قام بعرض تاريخي للنزاع، معتبراً أن الثورة العربية أمر حتمي بسبب "خاصية الإبعاد التي تميز الاستيطان اليهودي، رغماً عنه إن صح القول". وسيلاحظ في هذا الصدد، أن الإضراب العربي الكبير، يخدم بشكل غير مباشر مصلحة الاستيطان، لأنه يدعم نزعته الإقصائية: "ذلك أن مستقبل الثورة العربية مرهون طبعاً بسياسة الحكومة البريطانية، لكننا عندما نتعرف على نشاط المستوطنين ورجال الصناعة اليهود، ونأخذ بعين الاعتبار قوة حركة الهجرة لديهم، فإننا نشك في قدرة العرب وحدهم، على إيقاف المد الصهيوني بشكل نهائي. فاستيطان الإبعاد الذي خلق اليهود -والذي سيشكل خطراً عليهم أيضاً- سمح لهم بالانغلاق وسط تنظيم داخلي، لا يوجد فيه

أطفال يشاركون في ورشة عمل بعنوان "التعبير بالرسم والموسيقى"، نفذها فريق نرويجي في مقر المؤسسة برام الله، ضمن برنامج "أصوات من القدس"، الذي يقوم الفريق على تنفيذه في محافظات الضفة كافة.

غيرهم؛ وسيظلون في داخله مدعمين بالمواقع التي احتلوها. ومن المؤكد أن فلسطين ستواجه أزمة أخطر من سابقاتها. ولربما ذهبت الرساميل اليهودية إلى أمكنة أخرى، لكن جزءاً كبيراً مما شيدته سيظل قائماً، إذ يبدو أن ركائزه جد متينة".

4) فلسطين في سنة 1938

لم ينشر مونتان على ما يبدو، دراسات حول القضية الفلسطينية سنة 1937، وإن كان متتبعاً لتطوراتها عن قرب. وقد خصص لها واحدة من بين مداخلاته الثلاث، ضمن مؤتمر بلودان (Bloudane) الذي أثيرت فيه نقاشات حول تطور البلدان المنتمية إلى الحضارة العربية، في تموز سنة 1938؛ وهي المداخلة التي اختار لها عنوان "ردود الأفعال العربية تجاه الصهيونية".[12]

ونجد عند بداية هذا النص، رؤية سوسيولوجية دقيقة لأشكال المقاومة المسلحة العربية، حيث جاء فيها: "لكي نقيس بدقة قوة ردود الأفعال العربية، يتعين علينا بدءاً وصف الشكل القتالي والعنيف للصراع الدائر منذ سنتين. فبينما يتم في شمال إفريقيا، في مرحلة الفوضى، الاقتصار على قطع الطريق، أو إشعال فتيل التمرد داخل القبائل، فإن الصراع السياسي في الشرق يتحول عكس ذلك، إلى حرب تتخذ مباشرة شكل **حرب عصابات**".[13]

وقد خصص مونتان الجانب الأكبر من مداخلته للحديث عن المؤتمر العربي المنعقد في أيلول 1937، انطلاقاً مما تناقلته الصحف العربية. وسيلخص أعمال هذا المؤتمر والمداخلات التي قدمت فيه، مستنتجاً الملاحظات العامة التالية: "من المفيد مقارنة المؤتمر العربي المنعقد ببلودان بالاجتماع السياسي الموسع الذي سبقه، أعني المؤتمر الإسلامي في القدس، الذي انعقد في شهر كانون الأول 1931. وتسمح هذه المقارنة بضبط المسار الذي اتبعه الرأي العام المشرقي في اتجاه الوحدة. وما يثير المرء لأول وهلة، هو أن مؤتمر بلودان تم تحت شعار القومية. لذلك، فإن شعور التضامن العربي سيتغلب على فكرة المجموعة الإسلامية. فلم يعد مشروع المؤتمر هو خلق جامعة إسلامية تعيد للقدس قيمتها كثالث مدينة مقدسة، وثاني القبلتين لمواجهة الحصن الروحي الذي شيده اليهود فوق جبل (Scopus). ولإيقاف المد المتصاعد للهجرة اليهودية، أصبح من الضروري الآن، التأكيد على الانخراط السياسي الفعال وعلى التحالف العربي، عبر خلق فروع للدعاية السياسية من أجل الوحدة، في كل ربوع العالم العربي. فالمشكلة الفلسطينية لا يمكن حلها إلا بتثبيت الوحدة العربية بجميع أشكالها في الشرق الأوسط، وذلك عبر الاتفاقات الثقافية والبعثات العلمية وتبادل التقنيين وانتقال الرساميل العربية والتجهيزات الصناعية بين الدول؛ لأن هذه المعطيات هي التي ستساهم في تدعيم القومية أو بالأحرى (الإمبريالية) العربية. وبذلك سيتم إدماج الأقليات، كما ستتحقق المساواة بين الأديان، تحت سيادة الحكومات الإسلامية".

والملاحظ، أن بلدان شمال إفريقيا، من ليبيا إلى المغرب، لم تنخرط في الكتلة العربية المشرقية، لأسباب جغرافية، لذلك لم تطرح فكرة الاتحاد معها. وقد صرّح شكيب أرسلان في هذا الصدد "إن الاتحاد مع هذه المناطق غير مدرج في برنامجنا، ويجب علينا ألا نثير موضوعه، كي لا نواجه أعداء أقوياء، إننا نريد تحقيق الوحدة العربية في آسيا، لكن ذلك لا يمنع من أن نحقق مع مسلمي المغرب العربي، وحدة لسانية وثقافية ودينية ووجدانية".

لقد أكد الجميع أن الوحدة العربية ما زالت ناشئة؛ وهو ما أبانت عنه خطابات بلودان التي أقرت بعدم اكتمال الأمة العربية. لكن خاصية عدم الاكتمال هذه، هي التي دفعت المؤتمرين إلى مطالبة الغرب بدعمها وعدم تدميرها من خلال تأييده قيام دولة لليهود، وسكوته عن التوسع الرهيب لهؤلاء في أرض فلسطين. بعد ذلك، قام مونتان بفحص أحداث أيلول 1937 وتموز 1938، التي تميزت باستئناف الثورة العربية من جديد، واختيار مفتي القدس المنفى في لبنان. وقد أكد على مظاهر التضامن مع قضية فلسطين، في البلدان العربية والإسلامية. وعبر عن قلقه من الاستفادة التي يمكن أن تجنيها قوى المحور من هذا الوضع، قائلاً: "لا نستطيع للأسف قياس مدى إصرار بلد أوروبي يخطط لخلق الاضطرابات في المشرق بغرض إضعاف جيرانه، على لعب أوراقه بميدان الشعوب الإسلامية. ألا تبرز أمام أعيننا، من برلين إلى وارسو، ومن اسطمبول إلى موكدن (Meukden) وطوكيو، عملية واسعة للانشقاق، ستؤدي لا محالة إلى محاصرة روسيا انطلاقاً من القلاقل الحاصلة في تركيا وبلاد التتر؟ ألن يؤدي التلويح بخطر الشيوعية، إلى إشعال فتيل الفتنة في إسبانيا والبرازيل وفرنسا، وإلى غرس بذور الحروب الأهلية في عقول الشعوب الصغيرة التي لم تخضع بعد للنظام الديكتاتوري؟ ألن ينتج عن معاداة السامية، استعادة القوى الوطنية سيادتها، وبروز حركة تضامنية واسعة عربية وإسلامية ضد صهيون الجديد؟ وسواء تعلق الأمر بمؤتمر بلودان أم بردود الأفعال التضامنية العربية والإسلامية، فإننا نكتشف دائماً أثر حضور خفي لألمانيا. فالرايخ الثالث يقود اللعبة عبر اضطهاده لليهود، وقد نجح في لعبته من خلال ردود الأفعال العربية المناهضة للصهيونية. وعلينا أن ننتبه جيداً إلى هذا الموقف المزدوج، حتى لا تبعدنا نتائجه عن السؤال الأساسي المطروح وهو: هل يمكننا أن نجعل قوميتين متناحرتين (اليهود والعرب)، تتعايشان فوق الأرض نفسها وداخل الحدود نفسها، دون أن يؤدي ذلك إلى انفجار عام، يتنبأ البعض منذ الآن، بنتائجه المدمرة؟".

بعد مرور بضعة أسابيع على صدور هذا النص (تموز 1938)، نشر مونتان مقالة حول الوضع العربي في مجلة جديدة ساهم بنفسه في تأسيسها، وهي مجلة **فرنسا المتوسطية والإفريقية**.[14]

وقد عالج في نصه الجديد، الأزمة السياسية التي أصبحت القومية العربية تعاني منها، بعد إقالة حكومة النحاس باشا في مصر، والمشاكل التي كانت تتخبط فيها الكتلة القومية في سوريا، وتهديدات تركيا بالتوسع على حساب العرب (قضية السنديان Sandjak d'Alexandrette).

ومن جهتها، فإن فلسطين كانت غارقة في العنف دون أن تبدو في الأفق أية إمكانية لحل سياسي. وقد ركز مونتان في هذا النص، على الجوانب الاقتصادية للقضية، ومما جاء فيه: "علينا الآن معالجة التغلغل الاقتصادي الغربي الذي يشكل الاستيطان الصهيوني أكثر مراحله فظاعة. فنحن نعاين تقدمه السريع في كل بلدان المشرق. ومنذ ثلاث

سنوات، استولت الشركات الأنجلو-أمريكية، في غفلة من الجميع، على آبار البترول الموجودة بأطراف شبه الجزيرة العربية. وقد عمل الأمراء العرب على إنفاق الأموال المكتسبة من هذه العملية، في بناء القصور والإقامات الفاخرة وشراء السيارات والأسلحة الحديثة. ويبدو ظاهرياً وكأن الدول العربية ستتقوى نتيجة هذا الوضع، لكنها في الحقيقة ستخضع أكثر لهذه القوى الخفية والغامضة، المتمثلة في اتخاذ الشركات النفطية، التي أصبحت أكثر وبالاً على حياة الدول العربية من القوى الاستعمارية التي تبدو حقيقتها للعيان بشكل مباشر على الأقل". إن هذا القلق الذي عبر عنه مونتان، سيبرز بوضوح ضمن مقالة منشورة في آب 1938 تحت عنوان: "من أجل سلام بفلسطين"،[15] حيث أدلى لأول مرة بآرائه الشخصية، في الموضوع، باسم القيم الروحية/ الدينية.

هكذا، سيعرض للمسار التاريخي للقضية الفلسطينية مذكراً بوعود الازدهار الاقتصادي والصناعي والتجاري، التي قدمت للدولة اليهودية المرتقبة. لكن المشكل يتمثل في التعارض الحاصل بين القومية اليهودية والقومية العربية، حيث يتواجه "شعبان مختاران"، ونحن نتساءل بنوع من الحرج، يقول مونتان: "عما إذا كانا يتقاتلان في سبيل الله أو من أجل مهمة أو مستقبل دنيويين". وقد عبر بهذا الصدد عن اندهاشه من تخلي القوى المسيحية عن مسؤولياتها الدينية، في حين أن اليهودية والإسلام تحولا إلى نزعة قومية بفعل إزالة القداسة عن العالم (Désacralisation). وعلينا أن نتوقع إبعاداً متنامياً لعرب فلسطين، سيؤدي لا محالة إلى بلترتهم (تحويلهم إلى بروليتاريا prolétarisation). والحال، أنه لم يتم أخذ شعور اليأس لديهم بعين الاعتبار، وهو الشعور الذي دفعهم إلى القيام بأكثر الأفعال دموية "حيث تمكنت هذه الأفعال العنيفة من قلب كل الحسابات".

وبعد أن بين أن العنف القائم لا علاقة له بالتدخلات الأجنبية، الإيطالية أو الألمانية، عبر عن قلقه مرة أخرى، من إمكانية استفادة دول المحور من هذا الوضع. وقد عمل إثر ذلك، على فحص مجموعة مشاريع-حلول، حيث اعتبر أن خطة التقسيم غير قابلة للتطبيق، نظراً للمعارضة العربية لهذه الخطة. كما أن المشروع القاضي بجعل اليهود أقلية ذات حقوق مضمونة، لم يقبل من طرف هؤلاء. وفضلاً عن ذلك، فهو لم يقتنع بالحل القائم على القوة المفروض من طرف اليهود، لأنه سيؤدي إلى إغلاق أسواق وممرات الشرق أمامهم.

في ضوء ذلك، سيقدم مونتان المقترحات التالية: "بما أن يهود أوروبا الوسطى تم إبعادهم من طرف هتلر ومناصريه، وهذا هو أساس المشكلة اليهودية، فإنه يتعين توجيه هجرة اليهود نحو الأراضي غير المأهولة بكل من إفريقيا وأمريكا. ويجب أن نأخذ في الحسبان كون القومية العربية كما القومية اليهودية، تستندان إلى ادعاء ديني مفاده أنهما شعب الله المختار. فلا يمكن والحالة هذه، أن يصبح اليهود أقلية محمية وسط البلدان العربية. وعلى سبيل المقارنة، هل يمكن تصور الأمر نفسه بالنسبة للمستعمرين في الجزائر ومطالبتهم بالتعايش مع القومية العربية؟".

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، سيقترح مونتان تدويل (Internationaliser) القدس وضواحيها، بحيث تصبح فضاء تعبدياً يديره ممثلو الأديان السماوية الثلاثة. وسيمنع كل نشاط اقتصادي أو سياسي داخل هذه المدينة المقدسة.

أما بخصوص باقي مناطق فلسطين، فيتعين أن تفرض هدنة تحترمها كل الأطراف، ونظام قائم على مبدأ استقلال الشعوب (Système d'autonomie)، مضمون من طرف القوى الغربية والشرقية. وسيكون للمهاجرين اليهود الحق في الإقامة داخل المنطقة اليهودية المحددة من طرف خطة التقسيم.

طبعاً، فإن هذه الخطة تقتضي مشاركة فعالة للقوى المسيحية، وهو ما أشار إليه مونتان بقوله: "بقي علينا أن نحدد وضعية اليهود الذين قدموا كمحتلين إلى "ما يدعونه" أرض إسرائيل (Eretz Israel). فهؤلاء هم المطالبون بتقديم أكبر التنازلات، إذ يجب عليهم في المقام الأول التخلي بهدوء عن فكرة ضم القدس، هذه المدينة المستهدفة من طرفهم بشكل غير معلن، فمطمحهم لن تكون له أية قيمة إذا ما أكد المسيحيون بالأفعال، على رغبتهم في صيانة الأماكن المقدسة. ومعلوم أن الصهاينة يطمعون في إقامة دولة قومية يهودية (Etat national juif) مباشرة بعد الإعلان عن خطة التقسيم. والحال أن الحكمة تقتضي الحفاظ، خلال فترة الهدنة، على وضعية الموطن القومي اليهودي (Home national juif). وأفضل نصيحة يمكن تقديمها للصهاينة، هي دون شك، نصيحة الدكتور مانييس (Magnès) الذي اقترح إيقاف عمليات الإعمار لبضع سنوات على الأقل. ومن المؤكد أن المهام ستكون صعبة خلال سنوات الانتظار هذه، إذ يتعين تجميع المستوطنين وسكان المدن داخل المنطقة اليهودية التي حددتها خطة التقسيم، **ومنع أي توسع خارج هذه الحدود**، والعمل بشكل منظم وسلمي على انتقال الساكنة العربية واليهودية. وما يرجى هو أن يساهم تحويل القدس إلى مدينة مقدسة، في إزالة التوتر بين الأطراف، ما قد يؤدي بالجانب العربي إلى قبول وجود تجمع سكاني يهودي داخل منطقة محددة. آنذاك فقط، يمكن إنهاء فترة الانتداب من أجل إقرار الوطن القومي اليهودي".

يجب إذن إجراء تفاوض موسع، تساهم فيه كل الأطراف الدولية المعنية بالقضية الفلسطينية: "لأن إجبار الشعب العربي الفلسطيني بالقوة، على قبول قيام دولة يهودية مستقلة، سيؤدي مسبقاً إلى انهيار كل إمكانيات التعاون الاقتصادي والثقافي التي تسعى الصهيونية إلى تحقيقها مع دول المشرق. لذلك، يتعين الشروع في مفاوضات برعاية بريطانيا العظمى، تشارك فيها القوى العظمى المتحضرة المهتمة بمصير اليهود في العالم، باسم مبدأ العدالة، والقوى العظمى الاستعمارية التي تدير شؤون الشعوب الإسلامية، ثم الصهاينة وأخيراً البلدان العربية في شبه الجزيرة.

ويبدو أن الوضع الذي ينظم علاقة المسيحيين بالدروز منذ ستين سنة بلبنان، هو أفضل مرجع يمكن الاستعانة به للتقريب بين مبادئ القومية العربية والصهيونية، عبر خلق نظام يتمتع بالاستقلالية، ويخضع في الآن نفسه لرعاية كل من الغرب والشرق. ولا يكفي أن نبعد القدس، هذه المدينة المقدسة، عن المنافسات الدولية من خلال تعهد رسمي ونهائي بعدم إدراجها في الصراعات السياسية، بل يجب أيضاً أن نقدم للسكان العرب الفلسطينيين أدلة على تضامننا معهم، وهو ما تضمنه وعد بلفور نفسه،[16] إذ من اللازم أن تحترم مصالحهم المادية والمعنوية أمام الخطر

الاقتصادي والقومي الناجم عن تطور الصهيونية" . فالرهان الأساسي يهم العلاقة بالنزعة العروبية (L'arabisme): "وبالفعل، فنحن لا يمكننا أن نتجاهل ولا أن نناصب العداء لنهضة ساهمت مدة طويلة في تطور حضارة العصور الوسطى، وما زالت تستحضر دورها الفعال في نقل العلوم الإغريقية التي كادت أن تندثر، إلى أوروبا المسيحية. فالعدالة واحترام المعاهدات، يحتمان علينا الالتزام بما وقعناه مع الدول العربية. وسيكون من الظلم، ولربما من الخطورة بمكان، التخلي عنها دون حماية، أمام الضغط المزدوج لكل من الصهيونية والتهديد التركي بتخوم الأناضول، ما سيؤدي إلى تعطيل نموها.

طبعاً، سيعترض علينا الصحافيون اليهود وسيندهشون من هذا الخوف المعلن من النزعة العروبية؛ إذ يكفي بالنسبة إليهم، أن تفرض أوروبا بالقوة حلاً لصالح إسرائيل، حتى يخضع الجميع لقرارها. ذلك أن القومية العربية مجرد كلام وسراب وادعاء وحقد. في حين أن الرواد الصهاينة سيجلبون إلى أرض فلسطين كل القوى والإمكانات المادية والروحية التي تتضمنها الحضارة الحديثة".

سيجيب مونتان عن هذا الاعتراض قائلاً: "إن من مصلحة السلام ومن مصلحة إسرائيل نفسها،[17] عدم الاهتمام بهذه الأقوال. فنحن نعلم أن حجم القومية العربية في تزايد يتناسب مع حجم المقاومات التي تعترض سبيلها. لكن من العدل أن نمنحها الحق في الحياة، وأن نسمح لها بالتطور، لأن تجربتها خلال السنوات المقبلة هي التي ستمكن العالم من قياس قوتها أو ضعفها. وإذا ما ساعدناها على فصل الروحي عن الزمني، أي فصل الدين عن الدولة، فإننا سنجعل مهمتها أسهل وأفيد. وفي الأخير، سنخفف من حدة نزاع قد يشتعل في كل البلدان الإسلامية، بفعل تحريض بعض القوى الخارجية عديمة الذمة، ما يجعل حياة اليهود بالمشرق وبالمغرب عرضة للأخطار".

وفي الحقيقة، فإن مونتان كان مقتنعاً باستحالة قيام دولة يهودية مستقلة دون دعم من الإمبراطورية البريطانية. فدون هذا الدعم، "سيكون مآل اليهود شبيها بمآل الصليبيين".

لقد صدر هذا المقال في حزيران 1938، في فترة لم تكن فيها الأوضاع الدولية قد بلغت حداً خطيراً. لكن مؤتمر ميونيخ الذي انعقد في شهر أيلول، سيحطم آمال مونتان؛ ما سيدفعه إلى دعوة فرنسا لتبني سياسة جديدة اتجاه البلدان الإسلامية، على اعتبار أن النجاح الفرنسي بشمال إفريقيا هو الذي سيسمح "بالنهل من جديد، وفي بضعة أيام، من الينابيع الحية لقوتنا الوطنية". وكانت تلك هي ثيمة مداخلته في مركز دراسات السياسة الخارجية، التي نشرت فيما بعد تحت عنوان: "السياسة الإسلامية لفرنسا". ويتعلق الأمر فيها بتهييء شمال إفريقيا لخوض غمار الحرب (العالمية الثانية).

ومن هذا المنظور، سيرسم مونتان لوحة شاملة للقوى المتواجدة في "العالم العربي"؛ وهو المفهوم الذي أصبح يكتسي صبغة إجرائية في مسار فكره، حيث أصبحت فكرة التصالح مع القومية العربية أمراً قائماً ومؤكداً. وقد عمق النتائج التي توصل إليها في مقالته حول السياسة الخارجية الفرنسية قائلاً: "بالنسبة للصهيونية، لا يسمح لنا بالتردد كيفما كانت الأحوال. ذلك أن خلق دولة يهودية مستقلة، يبدو في

من مسيرة العودة في رام الله التي نظمت لمناسبة مرور 60 عاماً على النكبة.

العالم الإسلامي برمته، بمثابة خطر رهيب على شبه الجزيرة العربية، قلب الإسلام ومهد النهضة العربية. وما دام موقف الرفض واضحاً ودائماً، فإن التعاون بين الصناعة اليهودية والأسواق العربية سيغدو مستحيلاً. والنتيجة هي أن تزايد الهجرة اليهودية، سيشكل خطراً سياسياً واقتصادياً على اليهود أنفسهم. ولا يمكن في ظل أوضاع كهذه، تصور إمكانية خلق وطن قومي فلسطيني كوسيلة لمعالجة مشكلة المهاجرين اليهود المطرودين من أوروبا الوسطى والشرقية. ويجب علينا في ظل هذه الشروط، ألا تقدم للدعاية الجرمانية فرصة إشعال الفتيل في المشرق، وإلهاب حماس الرأي العام الإسلامي في المغرب العربي، ضد القوى العظمى الليبرالية.

من اللازم إذن إيقاف الهجرة اليهودية وإقامة هدنة دينية في فلسطين، شريطة أن يخضع اليهود المستقرون فوق ما يعتبرونه أرض الأجداد، لنظام حماية فعال وهذا من حقهم. وفي الوقت نفسه، فإن أبسط واجب إنساني، يحتم على القوى العظمى الاستعمارية البحث عن أراض جديدة لتوطين يهود أوروبا في مناطق لم يبرز فيها الشعور الوطني والقوّمي بعد. وتبدو مدغشقر والكامرون، كأراضٍ غنية ملائمة لهذا التوطين في المستقبل".

هكذا سيتبنى مونتان، مثل كل المناهضين لمؤتمر ميونيخ داخل الأوساط الاستعمارية الفرنسية والبريطانية، موقفاً حازماً اتجاه ألمانيا النازية، عبر الدعوة إلى ضرورة وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لمنع ألمانيا من استغلال هذا الوضع واستثمار السخط العربي لصالحها.

5) بعد الحرب العالمية الثانية

على ما يبدو، فإن مونتان لم يكتب أي شيء عن القضية الفلسطينية خلال الشهور الأولى من سنة 1939. ومع اندلاع الحرب، التحق بالأركان العامة للجيش، حيث اشتغل تحت قيادة الجنرال نوجيس (Nogues)، وكلف بالمسائل السياسية المتعلقة بالمنطقة. بعد ذلك، عمل تحت قيادة ويغاند (Weygand) أثناء قيام نظام فيشي (Vichy) (الموالي للنازيين)، ومع كاترو (Catroux) خلال فترة المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي، حيث اهتم أساسا بالقضايا المغاربية. وسينشغل من جديد بالقضية الفلسطينية، بإصداره في شهر تشرين الثاني 1945، دراسة حول فرنسا والصهيونية في فلسطين.[18]

فقد اعتبر أن فرنسا التي طردها البريطانيون من المشرق، مطالبة بالاهتمام بالقضية الفلسطينية لما لها من تأثير على وضعية اليهود في شمال إفريقيا على الأوضاع في فرنسا ذاتها. وقام من جراء ذلك، بعرض تاريخي للأحداث خلال سنوات الحرب، مذكراً بمساهمة اليهود المتواجدين في فلسطين في مجهوداتها، ومؤكداً على بروز جيل جديد من اليهود، متحمل لمسؤولية القيادة بشكل أكثر جذرية وتصميماً. ولاحظ أنه على الرغم من عدم اعتراف الدول بوجود الدولة اليهودية، فإنها أصبحت قائمة فعلاً، مع العلم أن خزانها البشري من يهود أوروبا قد أبيد تقريباً (قدم بهذا الخصوص رقم 5 ملايين و700 ألف من ضحايا النازية).

ومع ذلك، فإن الصهاينة كانوا يأملون في وصول اليهود المتبقين في أوروبا ويهود أمريكا وشمال إفريقيا إلى أرض فلسطين، بل إن بعضهم كان يحلم بإقامة دولة يهودية من ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة مستقرين بشكل نهائي بمحاذاة البلدان العربية، ومدعمين بقوتهم الاقتصادية والعسكرية.

وقد كانت المسألة المستعجلة هي إلغاء الكتاب الأبيض لسنة 1939، وهو ما كان مرفوضاً من طرف الحكومة البريطانية.

وعلى الرغم من المجهودات الكبيرة التي كان يبذلها العرب الفلسطينيون، فإنهم لم يتمكنوا من إيقاف الاستيطان اليهودي، علماً بأنهم كانوا يحظون بدعم البلدان العربية والإسلامية، التي ساهم وزنها السياسي في دفع بريطانيا إلى الحفاظ على سياسة الأمر الواقع في فلسطين.

من جهة أخرى، فإن الولايات المتحدة الأمريكية، أصبحت منخرطة تدريجياً في معمعة القضية الفلسطينية، وذلك لأسباب داخلية، وأيضاً لأن الأمريكيين شاركوا في بناء إمبراطوريتهم، انطلاقاً من منطقة الخليج من أجل النفاذ فيما بعد إلى البحر الأبيض المتوسط.

وبخصوص الاتحاد السوفييتي، فإنه بالنسبة لمونتان سيلعب دوراً وازناً في المنطقة مستقبلاً، لكننا لا نعلم الوجهة التي سيتخذها، والأمر المؤكد هو أن الظروف أصبحت مهيأة لمواجهة جديدة بين القوى العظمى: "وإذا ما كانت المنافسة الروسية -الأنجلوساكسونية ستشتد في مناطق الشرق في المستقبل، فإنه سيكون من السهل علينا أن نفهم أن النزاع اليهودي -العربي سيمد هؤلاء الخصوم بحلفاء طبيعيين. **ومن المرجح أن يقف الصهاينة إلى جانب أمريكا، في حين سيستثمر الروس بذكاء ردود الأفعال العربية دون أن ينخرطوا في النزاع.**

وستكون الوضعية السياسية لبريطانيا العظمى، متأرجحة بين الطرفين المتخاصمين، ومحرجة أكثر من أي وقت مضى، وهو ما يفسر تردد حزب العمال البريطاني في تقديم حل واضح للصراع في فلسطين. ولسوء الحظ، فإن النزاع حول البترول بين عرب الساحل والأكراد والإيرانيين والبدو والصهاينة، لا يخفف من حدة الصعوبات القائمة، لأن كل شعب من هذه الشعوب، يمكنه أن يهدد خطوط أنابيب النفط الهشة، إذا لم يتم إرضاء مطالبه، علماً بأن هذه الخطوط هي التي تنقل السائل الثمين نحو الموانئ وعبر القارة برمتها".

بعد هذه الملاحظات، سيقترح مونتان حلاً معتدلاً هو كالتالي: بما أن العدد الأكبر من اليهود قد أبيد في أوروبا، فإن عدد المهاجرين إلى فلسطين في المستقبل لن يتجاوز بضع مئات من الآلاف. ومن الممكن في هذه الحالة، مخالفة بنود الكتاب الأبيض والدعوة إلى أن تصبح القدس من جديد، مدينة مقدسة تمنع فيها الأنشطة الدنيوية (Profanes). وستعقد الآمال على إمكانية التخفيف من حدة التوتر بين القوميتين، في حالة ما إذا تحسنت الأوضاع المعيشية عموماً.

غير أن مونتان سيتدارك هذا القول، بعد ذلك مباشرة، معتبراً أن تحسن الأوضاع الاقتصادية في الشرق، لم يمنع من تنامي التعصب الجماعي. وفي هذا الصدد، علينا ألا نعتقد أن عائدات النفط ستساهم

في إزالة الإسلام الطهري المتزمت (Puritain) والمعادي للأجانب (Xénophobe)، الذي عرف انطلاقته في شبه الجزيرة العربية: "وبالفعل، فإن ما يثير الملاحظين غير المهتمين كثيرا بالمأساة الكبرى الحاصلة بفلسطين -التي تساهم فيها كل بلدان العالم أرادت ذلك أو لم ترد- هو الاعتقاد السائد بأن تطور الأحداث مرهون بالإمبراطوريات الكبرى فقط. لكن، إذا ما وضعنا القوى الروحية في الحسبان، فإننا سندرك خطورتها الكبرى، لأنها تغذي القوميات الأكثر سخطاً على الأوضاع. هكذا، فإن الجهاز السياسي برمته، يشكل آلة ضخمة وفظيعة تسعى دواليبها إلى سحق الإنسانية المتألمة. ولربما كانت عبارة عن غرفة شاسعة مليئة بالمتفجرات تتراكم فيها تدريجياً عناصر قابلة للانفجار، حيث سيشعل الصدام بين القوميات المتناحرة الفتيل القاتل والمدمر".

والحال، أن التعارض القائم بين القوى العظمى الثلاث في سنة 1945، على مستوى المصالح، يتضمن الشروط المؤدية إلى هذا الانفجار. ويتعين على فرنسا في هذه الحالة، ألا تصدر أحكاماً مسبقة على الصهيونية. فمآسي اليهود في أوروبا، لا تسمح برفض إقامة وطن قومي يهودي، لكن فرنسا مرتبطة أيضاً بمعاهدة وفاء لخمسة وعشرين مليون مسلم في المغرب العربي وفي إفريقيا السوداء، وهي أيضاً الصديقة الحامية لمسيحيي المشرق. لذلك وجب عليها أن تكون حاضرة بشكل فعال في القدس، وأن تدعم القوى الروحية، الدينية والثقافية التي تعمل من أجل الهدنة. "وهذا دواء ناجع ضد الحسابات المادية للقوى العظمى التي يخطط لها منذ بضع سنوات، تقنيون مهتمون بتنمية الموارد النفطية من جهة، وبالنزعة العروبية من جهة أخرى، دون وعي منهم بالنتائج المأساوية التي ستلحق بهذه الأوطان".

سيعود مونتان عند نهاية سنة 1946 إلى معالجة القضية الفلسطينية، ضمن دراسة حول سياسة بريطانيا العظمى بالبلدان العربية، حيث خصص حيزاً كبيراً لفلسطين. وقد اتسمت نبرة الدراسة بالتشاؤم، وتم التأكيد على استحالة قيام أي تفاهم بين القوميتين العربية واليهودية. فالصهاينة يريدون تأسيس دولة مستقلة مهما كانت الظروف، دولة قادرة، على الرغم من صغر رقعتها الجغرافية، على حماية نفسها بنفسها. غير أن الإرهاب اليهودي سيكون بمعنى ما، خطراً على مصالح اليهود أنفسهم. لكن القمع البريطاني سيؤدي بالساكنة اليهودية إلى مساندة الإرهابيين. والأخطر من ذلك، أن الفكر اليهودي الذي سبق أن قدم للعالم مذاهب سياسية واجتماعية عدمية (nihilistes)، بإمكانه بلورة مذاهب هدامة جديدة.[19]

وفي حدود علمي، فإن هذه الدراسة تعتبر آخر عمل مهم خصصه مونتان للقضية الفلسطينية. وسيركز اهتمامه، بعد هذا التاريخ على مستقبل إفريقيا الشمالية وسكانها، وأيضاً على إشكالية بناء الدولة الحديثة.[20]

ويبدو لي أن اهتمام مونتان بفلسطين، يرتبط بأمرين، وهما: توسيع أفق رؤيته ليشمل إفريقيا الشمالية والعالم العربي الذي كان يشهد انطلاقة سياسة مهمة، وضرورة متابعة التطور السياسي في هذه المناطق، لاعتبارات تتداخل فيها وضعيته كمستشار سياسي بوضعيته كأستاذ جامعي شاهد على الزمن الحاضر. وتتجلى هذه الثنائية في طريقة تصوره للمشكلات، حيث تمتزج الرؤية السوسيولوجية الرائعة التي تقدم صورة دقيقة عن الأوضاع بعبارات موجزة، بخدمة أهداف دولة، ارتابت من الصهيونية منذ البداية، لأنها اعتبرتها عاملاً مخلاً باستقرار المواقع الفرنسية بالعالم.

وعلى هذا المستوى، يمكن اعتبار مونتان وريثاً لأطروحات المنظرين الفرنسيين للسياسة الخارجية الفرنسية. هكذا يمكننا مقارنة أعماله بالمقالة المهمة لغايار (Gaillard)، الكاتب العام للحكومة الشريفة (المغربية)، التي صدرت في مجلة **الاستعلامات الاستعمارية** ملحق إفريقيا الفرنسية (renseignements coloniaux ، supplément à l'Afrique Française) بتاريخ كانون الثاني/ شباط/ آذار 1918، تحت عنوان "الصهيونية والمسألة اليهودية في شمال إفريقيا". وتتضمن هذه المقالة ثلاث قضايا أساسية هي:

1) فكرة الاستيطان المؤدي إلى الإبعاد، وقد تم التعبير عنها بما يلي: "من الصعب تصور إقامة مجموعة متراصة من الإسرائيليين داخل مناطق محددة، تعمل على إقصاء أو إبعاد المجموعات السكانية الأخرى، وتحقق بذلك المشروع الصهيوني، عبر خلق مستوطنات يشكل فيها اليهود الأكثرية العددية. فالمشاكل التي سيواجهها اليهود شبيهة بتلك التي واجهناها في شمال إفريقيا، حيث تم استبدال فكرة الإبعاد بسياسة التشارك. ففي فلسطين، كما في الجزائر أو في المغرب، لن يتنازل ملاك الأراضي الزراعية الخصبة عنها بسهولة".
2) فكرة الحماية؛ ومما جاء فيها: "بإمكاننا مع ذلك، أن نتصور إنشاء دولة تكون تحت مراقبة القوى الأوروبية وحمايتها، حيث تحظى كل المجموعات الإثنية والدينية بحقوق وطنية متساوية، وتدير بنفسها محاكمها الخاصة (قضاة، محاكم حاخامية (rabbinique) الخ . . .) ومدارسها ومجموع مؤسساتها الدينية (إرادة الأوقاف الإسلامية، ممتلكات المجموعات الإسرائيلية . . . الخ).
3) القلق المتزايد بخصوص شمال إفريقيا، وقد تم التعبير عنه بما يلي: "إن سياستنا اليهودية في إفريقيا الشمالية، مرتبطة حتماً بسياستنا الإسلامية؛ ويتعين علينا تفادي القومية اليهودية مثل تفادينا للنزعتين الإسلامية والعروبية، مع إعطاء الأولوية للانفتاح البطيء والحذر اتجاه حضارتنا. ويمكن تحقيق هذا الهدف عبر الحفاظ على نظام خاص بالأهالي يستجيب للوضع الاجتماعي القائم، ويسمح له بالتوفر على استقلالية مؤسساته والتطور داخل إطاره الاجتماعي الخاص. ومن الممكن وضع ترتيبات استثنائية وخاصة بالنسبة للنخب التي اتبعت مسار حضارتنا، وقدمت الدليل على ارتباطها بفرنسا".

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن مونتان، هذا الوريث لمثل هذه الأطروحات، هو أيضاً إنسان مؤمن. وعلى الرغم من أن الأمر لا يبدو إلا نادراً في كتاباته، فإنه يعكس موقفاً مزدوجاً لديه، فإيمانه صادق، إلا أنه لا يستطيع منع نفسه من التساؤل حول الصيرورة السوسيولوجية للديانات السماوية الثلاث.

هنري لورانس
ترجمة: د. عز الدين الخطابي - عضو اتحاد كتّاب المغرب

الهوامش

* اقتطف هذا النص من العمل الجماعي حول سوسيولوجيا روبير مونتان وعنوانه:
La Sociologie musulmane de Robert Montagne, sous la direction de François Puillon et Daniel Rivet, ed. Maisonneuve et Larose, Paris 2000, p: 167-183.

[1] انظر في هذا الخصوص، مقالتنا حول مفارقات الخطاب الإثنوغرافي، ضمن هذا الملف.

[2] Luis Massignon, "L'évolution actuelle de l'Islam arabe, vue du Caire", Politique étrangère, n 1, février 1936, p: 22-28.

[3] Luis Jovelet, "L'évolution sociale et politique des pays arabes" (1930-1933), Revue des études islamiques, cahier IV, Paris, Paul Geuthner, 1933, p: 6.

[4] "Groupe d'étude de l'Islam", Politique étrangère, n 1, février 1936, p: 10-15.

[5] Luis Jovelet, op. cit., p: 4.

[6] Ibid., p: 112.

[7] Ibid., p: 219.

[8] Politique étrangère, n 2, Avril 1936, pp. 54-67

[9] Politique étrangère, n 6, décembre 1936, "La grande Bretagne et la protection de la route des indes", p: 61-71.

[10] قدمت هذه المداخلة من طرف روبير مونتان، مدير المعهد الفرنسي في دمشق، يوم الاثنين 6 تموز 1936 في الجلسة الصباحية، تحت عنوان: "مناقشات حول تطور البلدان المنتمية إلى الحضارة العربية"، المجلد الأول من المداخلات التي عرضت في ملتقى باريس، ما بين 6 و9 تموز 1936، تحت إشراف معهد الدراسات الإسلامية في جامعة باريس ومركز دراسات السياسة الخارجية، باريس، بول هاتمان، 1936، ص: 15-18.

[11] مداخلة لروبير مونتان، مدير المعهد الفرنسي في دمشق، الثلاثاء 7 تموز، المرجع السابق نفسه، ص: 60-67.

[12] "نقاشات حول تطور البلدان المنتمية إلى الحضارة العربية"، المجلد الثالث، السنة الثالثة، ضمن المداخلات التي قدمت في ملتقى باريس، ما بين 11 و13 تموز 1938، تحت إشراف معهد الدراسات الإسلامية في جامعة باريس ومركز دراسات السياسة الخارجية، باريس، بول هارتمان، 1938، ص: 42 - 61.

[13] العصابات هي مجموعات غير متجانسة، يترأسها زعيم وتعيش في شبه سرية في القرى، كما تفرض قانون الصمت على السكان، عن طريق الإرهاب أو النفوذ؛ وغالبا ما يفلت أعضاؤها من قبضة السلطات الأمنية.

[14] "La crise politique de l'arabisme, juin 1937 - juin 1938", La France méditerranéenne et africaine, 1938, fascicule II, p: 7-40.

[15] "Pour la paix en Palestine", Politique étrangère, n 4, Août 1938, p: 384-412.

[16] ما نعرفه هو أن هذا الوعد المشؤوم قدم كل الضمانات لليهود ولا شيء للفلسطينيين! (المترجم).

[17] هناك حديث عن إسرائيل، قبل قيام الدولة! وهذا وجه آخر من وجوه الالتباس الذي يميز الخطاب الغربي حول القضية الفلسطينية (المترجم).

[18] "La France et le sionisme", Politique étrangère, n 3, décembre 1945, p: 241-272.

[19] "La politique de la Grande Bretagne dans les pays arabes", Politique étrangère, n 5, novembre 1946, p: 489-514.

[20] نشر في هذا الصدد مؤلفين مهمين حول المغرب أثارا نقاشاً موسعاً بين المهتمين بالقضية المغربية وهما: ميلاد البروليتاريا المغربية 1948-1950، وثورة في المغرب سنة 1953، وهي السنة التي توفي فيها (المترجم).

طفل يعبّر رسماً ضمن مساق "التعبير والرسوم" الذي ينفذه المركز مع عشرات الأطفال بإشراف باحثين من المركز.